القصص

تذكرة ســـــفر
من طنطا الى سقر

للأستاذ ابراهيم جلال بك
وكيل محكمة الزقازيق الأهلية

كان باحدى ضواحي مدينـة طنطا قروى له فتيان أحدهما جميل المحيا ، مفتول العضل ، تام الرجولة ، كأبيه فى الاستقامة والدأب على حرث الحقل ورعاية المـاشية واسمه حسن . أما الآخر وهو يونس فكان على نقيض أخيه ، خامل الذكر ، دائم التلهى بمعاكسة جيرانه ، يسد مسيل المـاء عنهم ، ويسرق أمطار الذرة ، ويسلبهم دجاجهم وسائر ما يكنزون

وكان أبوهما مصطفى كهلاً أرمل ، ولـكنه عرف بالنجدة وصلابة العود ، قد أخرجته الجندية متين البـدن ، وأكسبته سكنى المروج الخضر حدة فى البصر

وماتت زوجته والغلامان فى الطفولة الأولى ، وكان قد ادخر بقية من نقود الجندية فابتاع بها حقلاً زرعه نصف فدان وأحسن القيام عليه حرثاً وإنباتاً ، وأقام تحت ظلال صفصافة عالية كوخا صغيراً وسد به الحشائش الجافة وأضجع فيه طفليه واتخذ حوله سياجاً من قصب الذرة ، ومهّد فى ناحية من السياج مناخاً للدواب أسكن به شاة ذات أحمال وعنزات صغار . وكان الشيخ قد عرف بحسن الرماية وإحكامها من عهد أن كان فى مصاف الجيش ، ولديه قلائد الشرف حازها بحسن بلائه وبسالته فى فتوح السودان . وقد رآه أهل القرية غداة العيـد يحمل تلك القلائد ويخطر فى الدرب عند باب العمـدة كما شهد له العمدة بحسن السمت حين حياه مسلماً فى أدب الجند وسكينتهم ، وحين تناول قدح القهوة ثم انقلب إلى كوخه الصغير بين غلاميه وماشيته

وكان مصطفى قد اتخذ لنفسه محراباً للعبـادة فى ظل تلك الشجرة ، فاذا انشق الغسق عن غرة الفجر قام إلى قناة المـاء فاغتسل ثم جثا فى المحراب بقلب سليم ، وكان هذا حاله فى المواقيت الخمسة

فكان الله فى عونه حتى ترعرع الغلامان ، وجاوز حسن سن الخامسة عشرة ولحق به أخوه يونس ، وزكا الزرع ودر الضرع وسال النضار بكف الشيخ مسيل المـاء فى حقله ، فلم تطغه أخلاف الرزق وسمة العيش ، وعكف على تثقيف ولديه فى مكتب القرية ، فحذق حسن فن الكتابة والحساب ؛ أما أخوه فكان غافل اللب ، ينسل من المكتب مع رفقة له فيتسكعون فى دروب القرية حتى خرج غراً جاهلاً لا يحسن شيئاً ، ولم تجد فيه نصائح أبيه الشيخ ، ولا نالت منه سياط التأديب ولا وجيفة القيد ؛ فكان يفر من الكوخ ويبيت ليله بالعراء . وكان حسن يتميز رحمة وحناناً بيونس ؛ وكم كان يتق بساعديه سياط أبيه ويقاسم أخاه بلاء التأديب

وطرقهم طارق بليل ، وكانت ليـلة قرها زمهرير وريحها عاصف ، فهرت كلابهم بباب الكوخ ونهض الشيخ إلى غدارة له بالجدار عامرة بأسباب الموت . وكان حسن قد نما عوده ، واستقام كاهلاه كأحسن ما تقوم أبدان الرجال ، فتصدى لأبيه وتناول منه آلة الموت ، وخرج إلى الفنـاء وأبوه يرقبه بعينى صقر وبيده هراوة

ورأى حسن شبحا قد التقط حمارين من الخراف ، وتجاوز السياج بهما فانطلق فى أثره حتى حازاه ، وسدد اليـه القذيفة ، ولـكنه تعرف السارق فى عدوه ، ولمح من وميض الأفق تصاوير بدنه ، فألقى الندارة ولحق به ؛ وصحت فراسته فقـد كان أخاه يونس . وقال له حسن خل الخراف لئلا يلحق بنا أبوك فان بيده

المراوة . ورفض يونس صاخباً ؛ وتعاقد الاخوان بالأيدى ، وطعن قابيل هابيل وفر بالخراف . وجاء الشيخ يشتد وبيده آلة الموت التى رماها حسن ، وجثا بجانب الجريح وقال له : عجيب أمرك والله ! كيف تلقى عنك سلاحك ثم تذهب الى اللص أعزل ؟ ومسح الشيخ مقلتيه وحدق فى شبح السارق ، ثم بسط الغدارة على تلك السواعد الخالدة وهم باطلاق القذيفة لولا أن قام اليه حسن وانكفأ على صدره ، فطاشت القذيفة ونجا يونس وخلف الخراف . وشفى الله الجريح ورده الى أبيه فلاحا كادحا زينة الغلمان حماة الفؤوس

واستبان الشيخ أن سارق الليل كان يونس

وجاء عيد الأضحى فنحر مصطفى كبشاً ، وجاد بأكثره على الأيامى من عجائز القرية وضعاف أهل السبيل ، ثم جلس مع ابنه حسن يأكلان شواء وثريدا

وقال الغلام لأبيه : ياأبت إنى راحل الى مصر غدا إن شاء الله ، فقد أنقصوا أجرة السفر كرامة لهذا العيد . فقال الشيخ يا بنى إنى لأجد فى سفرك هذا خفوقا بين أضالعى لا أدرى والله له علة ولا سببا

وانطوى النهار وجاء الغد ، فخرج الشيخ يشيع غلامه الى المدينة ، ودخلا المسجد الأحمدى ، وطافا حرمه مع الطائفين من أهل القرية ، وصلى الناس الظهيرة مهللين مكبرين ، ثم قاموا إلى المحطة ، أما مصطفى فأنه تناول جبين ابنه لثما وزفر أنفاساً محزونة ثم توارى

ورأى حسن فى غمار الناس أخاه يونس يرسف فى أطماره ويزوى مسكنة وفاقة ، وقد غارت عيناه بين غضون الشقاء والاغتراب

وتعانق الأخوان ، وناح يونس من كبد نادمة موجعة ، ونسى حسن جراحه السالفة وما فعل قابيل به وقال : « لا عليك يا أخى ! وابتاع تذكرتين وحمل الى أخيه قرصين من خبز السميذ»

واستقر الناس فى العربات فى حلل العيد وحولهم قدورهم وحلواهم ، وأخليت مساند القرية للشيوخ ، أما الولدان والرضع فركبوا كواهل الآباء وحجور الأمهات

وتوالى ولوج هذا الركب المنكود بأفنية العربات ، وامتد مصافهم الى السقف ، حتى لقد أسبلوا من أبدانهم سترا كثيفاً على النوافذ . وكرت العربات فى إثر القاطرة تنهب الأرض وركبها لاه يرى انطواء الحقول والضياع والقرى كالصحف المصورة بيد الطفل ينشرها ويطويها

وكان ذلك قدرا محتوما وإن كان مكتوما ، فنزل بالركب المسافر موت فات الذين نوعوا أسباب الموت ، وغاب بهم الحساب عن الذين يعدون على الأيام أنواع البلاء وألوان العذاب

ذلك أن سعيرا من وقود جهنم فار من موطىء الأقدام وجوف العربات كما فار الطوفان من أغوار مدينة نوح

وما كان الركب إلا أهل الفاقة والمسكنة عبيد الضائقة المالية قد ذهب رب الحقل بما أنبتوا من قطن وبر ، ومشت الحكومة عاشيتهم فى الخراج . ولو كانت العربات مفضية الى بعضها لسارع الناس بالنجاة من باب الى باب وخلفوا النار تأكل بعضها ، ولكنها يا للحسرة الفاجعة ، كانت عليهم موصدة فى عمد ممددة

وكشفت نوافذ العربة لمن يرجو النجاة وثبا ، فتقاطر كل مقبل على الموت ليختار أحد السبيلين الى الآخرة أيهما أهون عذابا . أغمرة الاحراق ، أم دق الأعناق ؟ ورأى أهل القرى والحقول ضرام النار فى أتونها المستعر ، وهالهم ضجيج الوقود البشرى ، وجن جنونهم لغفلة السائق واندفاعه بقاطراته كعجلات الرومان الأولى نيط بها الأسرى فى أغلالهم ، وحمل الموتى الى مدينة بنها ، وعرضوا فى فناء المستشفى وأسعف الذين بهم رمق

وصاح النعاة بأهل القرى فأقبل الشيخ الفانى مصطفى مخذول الساقين ، زائغ البصر ، لا يدرى ما كتب لولده حسن ؟ ودخل فناء المستشفى فى مشيخة من قريته ، فعرف الناس موتاهم وعلا النحيب من اليتيم والأرمل والثكلى . أما مصطفى فقد دلف إلى الاشلاء حبواً وكفكف بصره بدمع يحرق الأديم ، وأراد أن يرى بعينه مبلغ الكارثة من فؤاده

فلمح ولده العاق يونس قاعدا يبكى وحول ساعديه العصائب وعلى صدره اللفائف ، وقد نشر رداءه على جسد أخيه حسن يحاول أن يخفيه عن بصر الشيخ المفجوع ، ولكن الشيخ رأى بالبصيرة ما لم يره البصر !!

ابراهيم مهول